مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:07 العدد 01 جانفي (2023) ص 503- 513

جماليات توظيف تيمة الصحراء في رواية " الخابية " لجميلة طلباوي

The aesthetics of employing the desert theme in Jamila Talbawi's novel "Al Khabiya"

عبد القادر العربي *

جامعة محمد بوضياف " مسيلة " الجزائر

kaderla14@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/10/07
تاريخ القبول:
2022/12/05

الكلمات المفتاحية:
- ✓ فضاء الصحراء
- ✓ الخابية
- ✓ المتخيل

الملخص

تعد رواية " الخابية " فضاء جماليا له بنية استيطيقية تعكس تيمة الصحراء وفق خطاب يتجه إلى الآخر الذي ينتج نصا في أمكنة مختلفة ، قد يكون قريبا يقاسمه نفس المشكلات وقد يبتعد عن قضايا فضاء الصحراء لكنه يتقاسم معه هذا الفضاء الإبداعي ، وعندما نتحدث عن خصوصية الفضاء فإننا نتجه إلى الجنوب الذي يملك بُعدا لا متناهيا وأسئلة تستحق الاستنطاق، انطلاقا من رواية لمبدعة من المكان لأن المبدع من خارج المكان بحكم العلاقة المؤقتة لزمن ما ، وتعد رواية " الخابية " جملة من المقولات تنظمها نسقية من الجماليات وينطبق عليها مفهوم الحكم الذي نطلقه على تلك السردية ، وهي صفة كلية وقضية ذاتية مرهونة بالذاتي والذي يحقق الاستحسان في البنية اللفظية لهذا النص الجميل دون أن يرتبط ذلك بنفع خارجي من أجل فهم تلك الحالة .

Article info

Received *07/10/2021*
Accepted

Abstract

The novel titled "Al-Khabia " reflects a lot of the aesthetical aspects that presents the theme of the desert , such structure also attempts to

* المؤلف المرسل

highlight the main struggles that are common when it comes to the theme according to how it can feature the artistic value as well for the work respectively , moreover the theme establishes many aspects of the place and the setting to question every little detail about it , while discovering how all of them contributes to the overall aesthetics in addition to the imaginary aspect .

05/12/2022

Keywords:
- ✓ *discovering*
- ✓ *Aesthetics*
- ✓ *imaginary*

. مقدمة:

اللغة ملك عام لكل البشر قبل خاصية الإبداع و المعاني مطروحة على قارعة الطريق إلا أن المقاربة مع النص شعرا كان أو سردا وتأمل جوهره الإبداعي، متجاوزين الخيال إلى ما هو أبعد من التخيل معنى ومبنى ، على مستوى الفكرة والموضوع والرؤية يثير تساؤلات منهجية عن النص بوصفه ذاتا دعاها إلى الكتابة فنها الإبداعي، هنا يكون استنطاق النص التابع للذات المبدعة" امرأة أو رجل " ، وتعد الرواية الجزائرية في مشهدنا المغاربي و العربي ذات حضور فاعل ، والمنجز النسوي له حضوره القوي خاصة في العشرية الأخيرة ، لأسباب عديدة أهمها السرد الذي تتمتع به المرأة المبدعة، و المتتبع للساحة الإبداعية الوطنية يمكنه الوقوف على رواية الخابية للكاتبة جميلة طلباوي ، والتي عكست سمات النص الذي يهتم بتيمة الصحراء ، من الناحية المكانية و من الناحية الزمانية أيضا وفق خطاب تتجه من خلاله إلى الآخر القريب والبعيد ، من هنا كانت الكونية ظاهرة توجهت من خلالها الروائية لتنقل الحياة بكل تفاصيلها للمرأة البشارية ، وهي بذلك تعمل على رصد الأمنيات للبسطاء من الناس تلامس من خلالها جمالية لا متناهية في الحوار الذي قدمته للمتلقي بين الشخوص و الذوات التي أدارت مشاهد الرواية ، في نسقية لا يمكننا الفصل فيها بين التراث المادي و اللغة التي اكتسبت العصرنة لمواكبة الأحداث ، في صراع بين الأنا التي تريد إحضار الماضي بكل ما يحمله من رموز للأشياء ، ولغة للأمكنة التي تغيرت عبر الزمن لكنها تظل الهاجس القوي للبعض في إحضار ذلك عبر مشاريع قد تكون فكرة الفرد فيها هي منطلق التجسيد ، وفي ذلك الأمر لا يخلو من مشكلات يعيشها الإنسان في أجواء الصحراء التي تظل حلم العقل الذي يرسم له مواعيد مع الإنسان و الأرض البكر في كل ما تحمله من أسرار لا يفقهها إلا من يستنطق رمل الصحراء و قصور الطين ذات الأبعاد الروحانية ، المُريحة للذات التي تنتسب للمكان و لكل ذات تبحث عن معرفة أكثر للمكان في بعد كوني جمالي للساردة استطاعت أن تقدمه للمتلقي بكثير من الدهشة اللامتناهية ، ولأن " الخابية " مصطلح يستعمل لتخزين المؤونة فهو رمز للبقاء و رسالة لكل مكان من الوطن من أجل مخاطبة الذات للعودة إلى ما تكتنزه محليتنا و التي تعكس الثراء المادي في لغة نص لها خصوصيات سلطة الفكرة ودلالة اللفظ للمبدعة.

دلالة العنونة :

العنوان يحمل رسالة تبثها الكاتبة إلى القارئ بما تحتويه من حمولات دلالية فكلمة "خابية" لها حمولة فلكلورية وذات علاقة بموضوع الرواية علاوة على دلالتها اللغوية، في الجرة الكبيرة أو " المزود" المصنوع من جلد الماعز والأغنام و التي

يحفظ فيها الماء أو الزيت أو الدقيق أو ما شابه ذلك، وقد استُخدمت وما زالت، من قبل الإنسان في كل الأزمان لهذا الغرض ، والعنوان الرئيس هو واجهة الرواية ويبرز صاحب العمل لمواجهة المتلقي ويسمى بالعنوان الحقيقي أو الأساسي أو الأصلي ، ويعتبر بطاقة تمنح النص هويته فتميزه عن غيره و" الخابية " في متننا السردي هي العنوان الرئيس جاء بخط واضح يمكن تمييزه طباعيا عن العناوين الأخرى ورد بلون بني على برتقالي " آجوري " خشن وهذا راجع إلى ثقافة وارتباط الكاتبة بالمكان الصحراوي ، الذي صرنا نتناوله في مخيالنا الجمعي كرمز للسياحة وحب التراث الوطني ، ونغفل عن نبضه الإنساني فهذا اللون يُعبّرُ عن القوة والحيوية وسعة الطاقة البشرية ، وقد أكّد بعض الباحثين على أهمية هذا اللون وذلك مرتبط بنظام مناعة الجسم وقوة التحمل فهذا اللون متداول عند ساكنة الصحراء بكثرة لاعتبارات مجتمعية وبيئية ، فهو مُغرٍ وله جاذبية ساحرة ولم يكن وجوده اعتباطيا في الصفحة الرئيسة للرواية بل له علاقة وطيدة ومرنة لإغواء المتلقي وذلك بولوج عالم الصحراء الفسيح وخباياها الكثيرة ، فالبؤرة العنوانية تتناص مع اسم الساردة من ناحية ومع متن النص من جهة أخرى لأن الكاتبة هي من نسجت خيوط روايتها بإحكام وعجنتها بالمكان لتكتمل الصورة البانورامية عند المتلقي المتلهف لمعرفة الكثير عن الصحراء ؛ فالخابية تحمل سمة " أدب الصحراء " وهو له خصوصية جغرافية حاولت الكاتبة رد الاعتبار للمكان والتأكيد على أهميته في حياة الناس فقد وردت لفظة " الخابية " مفردة وهي توحي بالغواية وفكرة التستر حتى تجعل المتلقي يطرح أسئلة كثيرة عن معنى " الخابية " ماذا يوجد فيه ؟ وما الأحداث التي ستروبها لنا الساردة ؟ إذ جعل بطل الرواية من " الخابية " مخطوطا من نوع خاص جدا سماه دفترا وهو يوحي بالتدوين والتأملات وتسجيل الأحداث ، وهذا الدفتر وضع في درج مكتب كل مرة يُدوّنُ فيه معلومات جديدة لتبقى خير شاهد على زمن مرّ على المكان ، " لقد اتخذت دفترا سميته " الخابية " وضعته في درج مكتبي أُدوّنُ فيه تأملاتي في هذه الحياة أخبئ بين صفحاته ما أحفره في ظلام الحبر لعلي أقبض على النور " " الخابية ص 70 " .

ويضيف البطل " الخابية كانت أهم أجزائه ؛ الخابية عمود في الجريدة أنشر من خلاله أفكاري وتأملاتي " فالخابية هي لفظة توحي بعمق الذاكرة الصحراوية وتبعث في نفوسنا دفء العائلة وذكريات السمر والحكايا الليلية ، التي كانت ترويها الجدات للأحفاد فهي حلقة علمية غير مباشرة تعلم الناشئة ترتيب الكلام وحسن السرد ووصف الأماكن والأشياء ، وتذكرنا دائما ببركة الجماعة ووجود كبار السن ليحدث التلاقح التاريخي والفكري وتنتقل الأفكار من جيل إلى جيل حتى لا يضيع موروثنا الأدبي والفني والقصصي .

العناوين الداخلية :

وأقصد بها التي تترأس نصوص فصول المتن ولأنّ الابتكار الإبداعي ابتكار وتجاوز لكل مألوف فكذلك العناوين تتعدد صورها وتختلف صياغتها ، فمن خلال مطالعتي لمعطيات الرواية برز لي ذلك التركيز على التركيب الإضافي كثيرا " مضاف ومضاف إليه "

ويمكنني توضيح ذلك كما يأتي :

يبتدئ الفصل الأول " لحظات انعتاق " من الصفحة 11 إلى الصفحة 73 فقد كثفت الساردة من استخدام التركيب الإضافي فالانعتاق اسم مصدر انعتق ، والانعتاق من العبودية والتحرر منها والمفعول منعتق منه أي تحرر من القيود تقول الساردة " لحظات الاختناق والخيبة تلك الأنهار التي طهرت روحي من لحظة حمق " " الخابية ص 14 " .

انعتاق من كل مايشد " فاتح " إلى القصور إلى الذكريات القديمة كي يسهل عليه أن يعيش دون ألم دون أن يحلم بما لا يمكن تحقيقه ، اعنتاق " جوهر " من حب " فاتح " انعتاق " عيسى " من ماض يلاحقه بأنه كان فقيرا وأمه خادمة لكن هذا الانعتاق كان مجرد لحظات انفلات من المكان وسلطته من الفشل العاطفي ومن كل شيء .

الفصل الثاني " المرأة مخلوق بين الملائكة والبشر "

لقد بالغ الفلاسفة في وصف المرأة وتحليل بشريتها وطباعها فمنهم من جرّدها من كينونتها وفطرتها فأصبحت مصدر كل شر ، ومنهم من حسبها مخلوقا ضعيفا رقيقا في نسماته ، ويبتدئ هذا الفصل من الصفحة 77 إلى 154 إذ في هذه الصفحات كانت الكاتبة تسرد لنا يوميات " سارة " التي أصبحت تغار من " جوهر " لأنها أنجبت وهي لم تتمكن من ذلك لسبب أو لآخر حُبس عنها الإنجاب وماعانته " جوهر " في تحقيق طموحاتها وتأسيسها لجمعية " قادمون " رغم فشلها في حياتها مع " عيسى"

الفصل الثالث : " دهاليز الوجع "

شمل هذا الفصل الصفحات القليلة من 155 إلى 168 وخيم عليه معجم الحزن والضجر والملل واليأس ، وكل شيء محبط للمعنويات فالساردة أحالتنا على صفحات انكسارية في ضمائر أبطال الرواية فسادت الضبابية والاحتمالات المجهولة بداية بمحاولة " فاتح " تحقيق حلمه الأبدي بنجاحه في مشروعه الذي خطط له سنوات طويلة ولكن في نهاية الطريق اصطدم بمعوقات اجتماعية وقانونية حطمت كل آماله في تحقيق ماكان يصبو إليه في دنياه ، فظلت هذه الشخصيات تتوجع في صمت وغير قادرة على مواجهة الواقع المرير ، فكل من " جوهر " و" سارة " عاشتا اغترابات روحية وضربات خارجية من أفراد المجتمع ولذا ظلتا سابحتين في دهاليز الزمن ، والدهليز هو كل شيء يوحي بالسراب وعدم تحقيق مايرغب فيه الإنسان في حياته لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية .

الفصل الرابع : " فاتحة لغد قادم "

يبتدئ هذا الفصل من الصفحة 169 إلى 200 وهو آخر محطة من سرديات " الخابية " وفيه إشارات النهاية المفتوحة على مصارعها لكل شخصية من أبطال الرواية ، فالساردة وضعتنا على حافة الاحتمالات ولعبة التوقعات لتكون النهايات سعيدة ، فالتوقع المختلط برائحة الحزن والألم يُفجّرُ الإحساس بالقنوط والضعف وهي ليست نهاية موت بطل كما عهدنا في الرواية التقليدية بل هي أوجاع متعددة وكل واحد حاول تجاوز محنته والنهوض على قدميه من جديد وتحدى المعوقات مهما كان نوعها ، وهي ظاهرة صحية في مجتمعنا الجزائري " ياعاقد الأمر حلها تجي مُزنة وتبللها " .

ينتمي النص للرواية التاريخية الواقعية في الأدب، فهي تستند إلى أحداث وقعت فعلا وقد تقع لقربها من الواقع في محيط الكاتبة " مدينة بشار و الضواحي " وهي حالة من السرد الواقعي بمخيلة لغوية قوية و ناقدة في انتقالها من مشهد إلى

آخر، هكذا عندما يحمل المبدع في روحه لغة المحيط إلى جانب ذاته ، تثور عنده الهوية وقلقها المتعدد، فيحاول في اشتغاله الأدبي البحث عن إجابات تقبل الأوجه المتعددة للأسئلة ليخرج في ذات الوقت من التنميط والتأطير اللذين يضعهما الآخر فيه ، وهو الكوني بوصفه متحدثا وكاتبا بلغتين في آن معا" ذاته و العالم الخارجي " كذلك هي الروائية و المبدعة الجزائرية " جميلة طلباوي " فبجماليات السرد الذاتي و فكرة المحيط المحلي " تيمة الصحراء " التي برزت في روايتها " الخابية بصورة جلية في الشخوص قدمت لنا مفهوم الكونية في النمط الذاتي المحلي ، و كذلك مستوى الطرح في التنقل من مشهد إلى آخر، شاملة لفكرة في تيمة الصحراء وتعد الكاتبة الأولى في هذا الرصد و رواية " الخابية" تقوم على فكرة المشهدية القائمة على التناغم وهو أبرز وجه للشوملة أو الكونية .. فمشاعر المبدع مثل تدفق الماء و هو يكشف دفق التجلي عن هذه المبادئ الإلهية الكلية التي تربط الذات بالآخر القريب والبعيد ، على مراتب مختلفة، عبر ظواهر ووظائف متنوعة، في جريان وتدفق الشلال ترى حاسة البصر لا تدرك إلا صورة ثابتة، في حين أن حركة الماء في الواقع متواصلة، بيد أن التغيرات المتلألئة على خلفية حال ساكنة تجعلنا نختبر فرحا منعشا وإحساسا بالتجدد في كل لحظة: وعلة ذلك أن عالم الظواهر عبارة عن حركة دائمة وتغير لا ينتهي، إنما يبطن هذه الحركة الموجود السرمدي الأبدي - وهي مفارقة تتكرر بصور مختلفة، فنظام الكون ينطوي على تنوع لا نهائي من الأشكال والصور والنماذج، بحيث إن الطاقة الخلاقة التي تبطنه تولد دوما أشكالا وصورا ونماذج جديدة ، وفي هذا الدفق الكلي ما من شيء يماثل الآخر، وحتى ورقة الشجرة الواحدة لا تشبه أي ورقة أخرى؛ إذ يبدو أن الطبيعة لا تطيق التماثل والتشابه، غير أن في تنوعات الحياة المذهلة "خيطا" سريا يربط ما بين الأشياء كافة في كل واحد لا ينقسم الإنسان الفرد أشبه ما يكون بقطرة في سعة محيط الوجود وعمقه، قد تبدو للوهلة الأولى منفصلة، لكنها في الواقع لا تنفصل عن هذا المحيط.هكذا هو المتلقي مع جماليات الكوني و الشامل والصحراوي في رواية الخابية .

تقول الكاتبة في الصفحة 110 "وحدها الأماكن القديمة تعرف كيف تربت على أوجاعنا " (جميلة ، 2014) هذه الصورة نابعة من أعماق الذات لكنها تلج عوالم الآخر فيصبح لها وجودا طافحا يخضع له ما هو إنساني وشامل للمشاعر الإنسانية ، على اعتبار أن الكونية هنا قائمة على مقولات يطرحها النص بالصورة الآتية :

1/ واقعية المتخيل :

تتمظهر في جدلية كل من المشاهدة العينية للوقائع والمأمول الذي يرسمه المخيال ، بكل أبعاده الذاتية و الكونية " وطلبا للأدبية ، راح السرد المعاصر يبني جمالياته الخاصة به والتي تقول الممكن و المحتمل " (حسين، 2002)

هذه الرؤية التي أقدمها هي خاصية لها تبعات مناخ الصحراء و هو تيمة اعتمدت فيها المبدعة على الخطاب الذي يعكس تصور العقل المبدع لهذه الأرض و يبرز قوة تمكين حظيت به المبدعة في نقل الأحداث وتسلسلها .

2/ تكثيف الأحداث :

الرواية تتكئ على موروث منطقة بشار و هو زاخر بالمشاهد التراثية التي تملأ الذات و المكان و بحكم انتماء الكاتبة لهذا الفضاء فقد كانت سابقة للمرأة المبدعة ، و تسجل لامرأة أخذت على عاتقها الكتابة حول فضاء يخضع للمساءلة من خارج الذات ، فكان التتابع بوتيرة زمنية يمكن للمتلقي من خلالها معرفة خصوصيات المكان ، هذا رغم الانقطاع الذي يحدث

للمتلقي من حين لآخر نظرا لكثافة الصور و الانتقال من حوار إلى آخر، ربما كانت الروائية هنا في حاجة إلى تفاصيل أكثر يرغب المطلع من خلالها إلى معرفة أفق الحدث.

3 / ظاهرة الزمن و المتزمن في فضاء الصحراء:

تختصره الخالة " ياقوت " و حبها للقصر القديم و كذلك شخصية "سي مختار" الذي قذف به الزمن إلى الهامش ، لكنه يقاوم و يختار المكان بحركته الزمنية المتواترة و البطيئة في تواصله مع الأشياء ، لأن حركة المتغير في فضاء الصحراء تختلف عن غيرها من الأماكن ، وبحكم أننا نستطيع التجول في المكان و نعود إليه متى شئنا فإن الزمن لا توجد لديه هذه الخاصية بل وتيرة مثلها مثل الوجود و الكاتبة هنا عكست الفترة بكل ما أفرزته تحولات دخول المجتمع إلى القرن 21 و تحولات المكان .

وعليه فقد قدمت المبدعة النص بلغة قوية فيها الإيحاءات و البلاغة الظاهرة و الصامتة أحيانا " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " (القزويني، 2004)

4 / الإقناع بالانتقاء :

وهو منهج ينتقي ومنذ بداية الأمر قارئه من معسكر بطل الرواية، فرواية الدعاية للفكر الليبيرالي مثلا تتوجه إلى قارئ متحرر ليبيرالي أو يتعاطف مع الأفكار النافعة ، وكذلك روايات الدعاية الإسلامية عند نجيب الكيلاني مثلا فإنها تتوجه إلى قارئ مسلم أو يتعاطف مع الدعاية الإسلامية. ويجد القارئ نفسه في معسكر الشخصيات الإيجابية ذات الأعمال الحميدة من زاوية تفكيره ، وهنا نجد الرواية تتجه إلى قارئ شمولي كوني لم يتحدد بمواصفات فكرية معينة لأن الكاتبة وضعت الأحداث في سياقها الواقعي الذاتي و هو المكان من منطلق الوطن مكان الميلاد و التربية و التنشئة و علاقة ذلك بالآخر الذي يتوق لمعرفة ما تخبئه الصحراء من جماليات تحافظ على أنموذج الشخصية المحلية للمرأة أو للرجل .

" والدتي تمسكني من يدي الصغيرة و تأخذني معها إلى البيوت، رأيت سيدات يختلفن عن أمي يضعن العطور و يلبسن أجمل الفساتين، يلمع الذهب في أصابعهن، ووالدتي تنظف و تكنس وتغسل.. لم أكن أفقه ما كانت تعمله أمي بالضبط، لكن أصدقائي في المدرسة أسقطوا جدارا كان بيني و بين واقعي حين نادوني :- ولد الخدامة " (محمد).

بإحساس عال ينقلك من مشهد إلى آخر دون عناء إدراك لأن هذا المشهد وغيره تشترك فيه الذوات لكنه يهمس بطابع الصحراء تلتقطه بحواسك و تعرف كم هي حاضرة صياغة النص وتفرده في حركية مذهلة لما هو حقيقي يطرح و يعالج و يستنتج بعيدا عن الغلو في التجريدية المشهدية .

و عليه تُعدُّ رواية الخابية إضافة حقيقية للإبداع بشكل عام، حيث استطاعت أن تنقل البطولة من التذكير إلى التأنيث عبر مسار "أنا" الكاتب و "أنا" البطل إلى "أنا" الكاتبة و البطلة في نفس الوقت، لتعزز بذلك مكانة الكتابة النسائية في المجتمع الجزائري و المغاربي عبر زحزحة سلطة المخيال وثنائية (رجل - امرأة) ومركزية الكتابة الرجالية مقابل هامشية الكتابة النسوية لتستعيد خصوصياتها.

إن هذا الفن الإبداعي الجديد جاء كشكل من أشكال الممانعة، المقاومة والنضال المبني على سلطة الكلمة النسوية باعتبارها واجب وضرورة سوسيولوجية لفك الاعتراف والتقدير عبر التحرر والخروج من الصمت عبر النص لمواجهة التساؤلات الكبرى ، كما أن الخطاب الرجولي يتكلم عن المرأة كما يشتهيها، كفتاة يانعة جميلة مغرية، المرأة في الحس الرجولي إحدى حالتين، أنوثة مثيرة وسيدة فاضلة ، وعليه فقد فتحت المقاربات المتعددة و النقاشات عبر ورشات متعددة على إشكالية الكتابة النسوية وإمكانية الحديث على "سميائية الأنثوي الذي يبحث في تيمة الصحراء " للخروج من السياج الإيديولوجي و الرهان على العمل الإبداعي للإجابة على سؤال المعنى.

فالنص النسوي هو قراءة و إعادة قراءة للمشهد الأدبي المغاربي لمواجهة المنتج الذكوري الذي سعى إلى تهميش الذاكرة النسوية ، و المقاومة الثقافية كفعل هوية أرشيف الذاكرة الجماعية و الفردية والارتقاء بالرمزي قصد إنعاش المخيال الثقافي و الاجتماعي وتحرير الكلمة الأنثوية وهذا ما سعت إلى تجسيده المبدعة جميلة طلباوي ، لأن الاشتغال على الهوية في الأعمال الأدبية يعد من صلب العملية الإبداعية لأنه يطرح الكثير من التناقضات التي تعيشها الشخصيات في رواية الخابية التي تكشف عن أزمة الهوية و تبحث عن هوية جديدة، وهي التي تعيش بين عالمين وثقافتين و فضائين ولغتين وزمنين مما يفضي إلى هوية مشوشة ، لكنها تحاول إثبات الذاتية في الفضاء الكوني ، و هي تحمل تلك الأصوات التي تحاصر دلالات متعددة تعكس الصوت الإبداعي الأنثوي من خلال المقاومة الرمزية و اللغوية وذلك بالتواصل عن طريق اللغة ؛ لأنها ترى فيها مساحة للتحرر و العبور و الاختراق و التي فرضتها سلطة الكلمة عبر السرد الذي لا يصنعه الحدث بقدر ما يصنعه الوعي به ، ليرجع صداها إلى "المؤنث" لكن عبر التخييل، أو بعبارة أخرى تجاوز لعبة المحو التي ندرك من خلالها الإطار دون إدراك الجزئيات والتفاصيل أي التصوير من الخلف أو من الجانب ، بل كانت الصورة في الرواية وجها لوجه .وهي بذلك تحاول خلخلة السؤال الثقافي باستخدام أدوات معرفية نوعية سمحت بإمكانية إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية و الثقافية و إدراجها في السياقات النصية ، ومن حيث إمكاناتها في خلق عوالم متخيلة لا توهم المتلقي بأنها نظيرة العوالم الحقيقية ولكنها تقوم بتمزيقها و إعادة تركيبها بما يوافق حاجاتها الفنية و الوجدانية و الواقعية ، نص ينطلق من الذاتي إلى الكونية ، تحاول من خلاله الروائية التسلل إلى الذاكرة الجماعية لتساهم بمكانيزمات متعددة في إعادة إنتاج وتأثيث المخيال من أجل الحصول على الحق في الوجود والمعرفة و الكينونة في وسط عادة ما تتفق فيه الجهود لإسكاتها.

و أريد هنا أن أعرج على التسمية «الأدب النسوي» فقد قال الكاتب المغربي الراحل محمد شكري " ليس هناك كتابة نسوية محضة وكتابة رجالية محضة، بل هناك كتابات جيدة وكتابات رديئة"، ولأن المرأة الكاتبة تشترك مع الرجل الكاتب في ذات الهموم والانشغالات الوجودية والثقافية والاجتماعية مع فارق خصوصية المرأة في اللغة وطريقة التناول التي تهندسها غالبا شروط خارج الكتابة وخارج ذات المرأة.

فإن كتابة المرأة لها خصوصيات هذا الكائن المسكون بفتنة التفاصيل و المحتفى بعبق البوح، قد أدركت قوة التناقضات والأسئلة حول كينونة الأدب النسوي، وأضافت إلى المشهد الإبداعي تنوعا وتجديدا بالغي الخصوصية في المواضيع وطرحها ، وقد رأت الكثيرات من الكاتبات أن سبب إشكالية هذه التسمية يأتي من حيث كونها غير دقيقة أصلا، فكيف يمكن أن نطلق "الأدب النسوي"، ولا نطلق "الفن التشكيلي النسوي"، أو "الموسيقى النسوية" و الطب النسوي ؟

وعلى الرغم من رفض الكثير من الكاتبات لهذه التسمية، إلا أنهن اعترفن بوجود كتابة أنثوية تقابلها كتابة ذكورية، والقضية هنا ليست قضية امرأة أو رجل بقدر ما هي نسبة الأنثوية التي يحتويها النص سواء كان الكاتب رجلا أو امرأة، ونسبة الذكورية التي يحتويها أيضا ، فقد رفضت الناقدة العراقية نازك الأعرجي التي تعتبر من الناقدات النسويات المجتهدات والرائدات في هذا المجال في كتابها "صوت الأنثى " استخدام مصطلح الكتابة الأنثوية، لأن الأنوثة كمفهوم تعني لها ما تقوم به الأنثى، وما تتصف به وتنضبط إليه فلفظ الأنثي يستدعي على الفور وظيفتها البيولوجية ، وذلك لفرط ما استخدم اللفظ لوصف الضعف والرقة والاستسلام والسلبية.

ومن وجهة نظر كثير من الكاتبات أن الخصوصية التي تكتب بها المرأة نصوصها المختلفة، والروح المتفردة التي تظهر في كتابتها، وعنايتها بالتفاصيل الدقيقة، يمكن إدراجها تحت الفروق بين كتابة الرجل وكتابة المرأة إذ تحفل كتابة الرجل أيضا بخصوصية وتفاصيل وسمات خاصة ، وما دام النقاد لم يطلقوا على كتابة الرجل أدبا ذكوريا، فإن تسمية الأدب النسوي" تبقى لونا من ألوان التمييز والعنصرية التي تتعامل مع المرأة بوصفها كائنا آخر له وجوده المستقل ، إن ثمة إشكالية في الإبداع الأدبي هي إشكالية عامة بغض النظر عن جنس الموضوع ، فالنص الأدبي يمتعنا أولا يمتعنا سواء أكان المبدع ذكرا أم أنثى ولكن هل يستطيع هذا النص أن يمتلك الإبداع إذا لم يكن ذا سمة خاصة به ، هنا نجد أنفسنا نتساءل: ما هذه السمة؟ من أين يستمدها المبدع؟

وقد أوضحت بعض الكاتبات أن وجود مثل هذا الوصف لكتابة المرأة، يقر بوجود صراع بين كتابة المرأة والرجل على حد سواء، وفضلن أن يصف ما يسمى "الصراع على أنه ثنائية في الأدب، وهذا يتضمن إقرارا بالاختلافات بين كتابة الرجل وكتابة المرأة في طريقة تناول كل منهما للموضوع نفسه، وأسلوب تفريغ كل منهما لذاته في النص بلغة تشبه .

و الملاحظ أن رواية " الخابية " لو سُلّمت لشخص المتلقي دون عنوان و طلب منه بعد الاطلاع عليها أن يحدد من كتبها رجل أو امرأة فلا يستطيع تحديد هوية الكاتب ، لأن إشكالية الموضوع طغت بجديتها على من كتب إلا أنه شخص مبدع استطاع أن يجعل المتلقي معه رفقة الكلمات ويصاحبه في رحلته داخل " قصور بشار" وسحر الأمكنة .

فالمرأة على العموم تميل إلى البوح والتفصيل والوجدانيات، والرجل يميل غالبا إلى النبرة العالية، وإظهار الذات مباشرة أحيانا، وهذا ما يجعل لكلمة "الصراع" إسقاطا نفسيا ولغويا وتاريخيا، يشي بحرب مشتعلة و الواقع لا يشي بذلك .

إن العلاقة بين المرأة والرجل ليست ساحة حرب بالدلالات التي تحملها كلمة "صراع"، والتي تُقرُّ مسبقا بوجود العدائية والتحفز لقتال الآخر، والكتابة التي تكتبها المرأة هي نظرة إلى العالم من أجل قول الكثير وتأنيث اللغة والأسلوب بما يتطلبه مشروع كتابتها كامرأة موجودة من أجل الحصول على حق مشروع في التعبير والكينونة ، لا تصارع المرأة في كتابتها بالقدر الذي تحاول فيه أن تتجنب أولا الاقتصاص من حس التهميش الذي يتمتع به العالم تجاهها، ومحاولة انتزاع الاعتراف بأن ثنائية "رجل وامرأة" ليس الهدف منها إلا إنعاش النص الكتابي بهوية إبداعية ذات خصائص وملامح جديدة ، وهذا ما يجعل المبدعة "جميلة طلباوي" على درجة من الوعي في ترتيب فكرتها وتجسيدها و ضبطها خارج مصطلح الصراع بل بتوازن دقيق و روح ذكية في المحافظة على مناخ النص الذي تنتمي إليه.

وبعيدا عن السجال بين موقفي الرفض والقبول، يستوقفنا رأي "أنصت إلى الإبداع النسائي" باعتباره إبداعا نصيا وخطابيا يحتاج إلى المساءلة والتأمل بعيدا عن الأحكام المسبقة، ودراسة الكتابة النسائية في ذاتها ولذاتها، وهنا يأخذنا الناقد سعيد يقطين في تجربته النقدية إذ يرى أن البحث في خصائص الكتابة النسائية يستدعي الانطلاق من النص ذاته بعيدا عن الآراء المشكّلة حوله، لأنها تعيق إنصاتنا إليه والإمساك بطرائق اشتغاله، للوصول إلى قواعد عامة أقرب إلى التجريد، يمكننا اعتمادها لتقويم التجربة، ووضعها في مسارها الملائم ، لذلك عمد إلى تفنيد تلك الادعاءات المزعومة التي تحصر الكتابة النسائية في العفوية، والحدسية، والاستعمال العادي للغة، كي يبين أن لغة الكاتبة هي طبقات من اللغات تستعمل أشكال متنوعة لا يمكن تشفير دلالاتها إلا عبر قراءات تأويلية متعددة.

وعليه يجب حضور المنهج ودقته أثناء مقاربة الإبداع النسائي، والتخلص مما ترسب في الذاكرة الجماعية حول المرأة، لأن سؤال علاقة المرأة بالإنتاج التعبيري بحسب تصورها يحتاج إلى شيء مهم من التحديد المنهجي، الذي بموجبه نُحصّن التفكير من كل انفلات قد يدعو إليه المتعاقد عليه في الذهنية والذاكرة الجماعية وتوارثه الخطاب حول المرأة، لا بد إذا من توجيه هذه العلاقة وفق فرضيات أو ملاحظات منهجية، و بهذا الصدد تعد " تيمة الصحراء" بالآلية التي كتبتها " جميلة طلباوي " محاولة لإبراز مظاهر تكوّن النص النسائي الجزائري ، مع إبراز خصائص تجليه سرديا وخطابيا، عبر معالجة مختلف قضاياه المحلية مثل التعليم وحرية التعبير و الموقف من الآخر / الغرب على غرار الأمريكية التي أشارت إليها في الرواية و هي تكتشف " الصحراء الجزائرية " والإنسان البشاري .

وإذا ما ربطنا الكتابة النسائية الحديثة بمستجدات واقعها ومتغيراته، فقد نلمس أن الكاتبة عرفت تجديدا كبيرا على مستوى اللغة وطرائق التخييل انطلاقا من اطلاعها الراهن والذي تضيفه لطقوس الكتابة الكلاسيكية.

و أذكر هنا رأي " محمد نور الدين أفاية " و الذي يرى بأن المرأة الكاتبة تستدعي البنى التي تؤكد استقلاليتها، إحداها محكومة بالصراع مع الرجل " " حيث أن المرأة حين تكتب فإنها تستدعي المكبوت المتراكم عبر الزمن لتعلنه أو تلقنه- في حـوارها أو صراعها" (جميلة ، 2014).

عبر هذه المفاهيمية كان النص سرديا يهتم بالواقع و أحداثه التي تثير الجدل بمتناقضات و متقابلات يعيشها الإنسان في أجواء ا" لصحراء " التي تخبئ الكثير من الرؤى و المظاهر قد تتجلى في صورة واضحة للمتلقي من خلال هذه الرواية أو تتماهي وراء هذا الفضاء الساحر و اللامتناهي تقول في الخابية " فهمت منه بأن ابن التاجر بن يونس الذي اختلس أموال البنك حصل على حكم بالبراءة الخبر صدمني ، أفقدني الرغبة في تناول خبز المطلوع الذي تعده لي زوجته خالتي ميمونة ، أصبحت غير قادر على الدخول إلى بيتي .. تسمرت أمامه كتمثال بليد .. سحبني من جديد إلى عوالمه " (الخابية، 2014، صفحة 94)

" عرّفتُها على صديقتي نانسي المهندسة الأمريكية التي غزلت الأنترنت بيني و بينها علاقة صنعت بهجة أيامنا ، و خلصتنا من مخالب الوحدة القاتلة ، كلانا ملأ وحدة الآخر و الليالي الباردة كانت كفيلة بنسج عواطف رقيقة مُجنّحة انتشلتنا من غربتنا عن بعضنا ، ووحدتنا في لحظة احتاج الإنسان للإنسان احتاج الرجل والمرأة كلاهما للآخر ، كلانا كان متشبثا بالأرض بحوثي

وتصاميمي كانت مرتبطة بالقصر ومواد بنائه الأولية وكيفية تطويرها لتتماشى مع التطور الحاصل في ذلك العصر" (الخابية، 2014، صفحة 105)

و تقول في الصفحة 157:" جوهر هو الاسم الذي اختارته لي والدتي حبا في والدتها لالة جوهر رحمها الله ، كأنه التعويذة التي أرادتها أن تحميني بعد أن تفارق الحياة و تتركني ، لأن اسمي جوهر كانت خالتي تحبني كثيرا ، فأنا أحمل اسم والدتها رحمها الله ، فكانت تخلق الحجج لأحضر إلى بيتها و أبقى قريبة منها ، منذ صغري كنت أميل إلى أشغال البيت ." (الخابية، 2014، صفحة 157)

. خاتمة:

تُعدُّ اللغة عنصرا أساسيا في بناء الرواية وتشكيل عالمها الفني إلى جانب العناصر البنائية الأخرى التي يتكونمنها العمل الأدبي من شخوص وفضاء وبنية زمانية ورؤية سردية وأحداث متتابعة ، فعن طريق اللغة تنطق الشخصيات وتنكشف الأحداث وتتضح البيئة ويتعرف المتلقي على طبيعة التجربة التي يعبر عنها السارد ، فهي الوعاء الذي يصب فيه الروائي أفكاره ويُجسّد رؤيته في صورة محسوسة من خلال استعمال نفردات وتراكيب أو تعبيرات تقريرية وأساليب إيحائية انزياحية ورمزية وتعبيرات تناصية ، والساردة " جميلة طلباوي " امتلكت ناصية اللغة ووظفتها بفنيات جمالية غاية في الروعة والتشكيل ، وكأني بها عقدت العزم مع هذه اللغة العربية البهية والشهية لتشنف بها آذان المتلقي وتأسره بعمقها وبهائها ، لقد استثمرت باغة اللغة وطرّزت بها متنها الصافي الساحر إذ خلّدت كتابتها الإبداعية بصمة الكاتبة في السرد الجزائري ، وكانت أحسن سفيرة لجنسها الأنثوي إذ مثلته أحسن تمثيل ويحق لمثيلاتها أن يفتخرن بها كمبدعة متميزة وجادة تملك أساليب الكتابة وروح الإبداع ، فرواية " الخابية " رواية المكان بامتياز فيها تكثيف غير متناه ، إنّ عوالم رواية " الخابية " نص به مزايا تعكس سحر الأمكنة لذات من عين المكان تطرز واقعا بلغة نعشقها وفق منظور الرواية ذات النسقية الجديدة ، والتي تحدد ما نقصده من استعمال لهذا المفهوم ، والذي ينطوي على دلالات متداخلة تحافظ على سحر المكان وتعمل على تواصله مع المتلقي في راهن حاول تغييب هذه الأجواء ، كما أنه ليس من السهل تحليل كل الدلالات أفقيا وعموديا بمقاس الابتكار والتجديد مع تتبع الأسئلة المضيفة للوعي اللحظي لمثل هذه الرواية ، والتي تعد أبرز نص تناولته أنثى من المكان ؛ لأنّ التناول خارج الأمكنة لا يكشف كل الدهشة التي تنقلنا إلى مضارب حميمية لها علاقة بالروح وخواطر النفس التي تتأرجح بين جماليات وأحلام العقول التي تبحث دائما عن الدهشة المستقرة لا المتأرجحة بين المتناقضات ، " فالخابية " هي تيمة مكان أم ذات عاشقة للمكان ؟ لقد تناولت هذه الرواية تمفصلات غاية في التميز والعمق جعلتها رمزا للحدث وانتصارا للوطن ، لقد رصدت علائق متداخلة ومتشابكة لرواية " الخابية " ، قائمة على المفارقات بين الذي نعرفه عن " الصحراء " كفضاء شاسع يسع الجميع وعن الجانب الخفي لقيمة " الصحراء " في ذواتنا كملاذ للأمن والسلام وراحة البال ، فرواية " الخابية " قامت على بنية الاكتشاف المدهش والسحر الفتاك لذات الإنسان ؛ فقد جمعت فصول الرواية فلسفة المكان وحبايا " الأفق الصحراوي " الذي تعتبر" الخابية " بؤرة تأسيسه وانطلافته السردية ، فقد استطاعت المبدعة أن تتجاوز المحلي إلى منطق أشمل وذلك من خلال طرح إشكاليات تعاني منها كل المجتمعات لكن بخصوصيات محلية ، ويعد ذلك إنجازا في الإبداع للرواية الجزائرية و تطورا سرديا للمرأة المبدعة ، و عندما كانت اللغة بسيطة و قوية في التأثير على المتلقي كان تألق

الساردة في نقل حقائق من واقع يعيشه الفرد " البشاري " و نسقت ذلك بجمالية مع فضاء الصحراء الساحر، ولذلك اعتبرت هذه الرواية ذات منحى مفاهيمي ثقافي يحفز القارئ على زيارة المكان " تربط بين ما هو ثقافي وما هو سياحي " كما أنها تعكس شخصية الكاتبة التي تعيش قضايا الناس تطرح الظاهرة و تترك الحلول يساهم فيها القارئ بالنتيجة التي يخرج بها ، فهي لا تفرض عليه نسقا من التفكير و تضعه أمام فضاء واسع من الاحتمالات، وهذا من ذكاء المبدعة لها كل التوفيق في كل فكرة سرد جديدة وهنيئا للقارئ الذي يبحث على الجماليات السردية .

5. قائمة المراجع:

Bibliography

الخطيب القزويني. (2004). *الإيضاح في علوم البلاغة تحقيق وتعليق فريد الشيخ محمد* . بيروت: دار الكتاب العربي .

.

خمري حسين. (2002). *فضاء المتخيل مقاربة في الرواية* . الجزائر: منشورات الاختلاف .

طلباوي جميلة . (2014). *الخابية*. رويبة: وحدة الطباعة رويبة.

نور الدين أفاية محمد . (بلا تاريخ). *الهوية والاختلافقي المرأة والكتابة والهامش* . الرباط : المركز الثقافي .